(01) تأمّلات في سورة التّكاثر لإرشاد الحائر عمّا شغل الناس عن الله واليوم الآخِر

2022-12-23

الحمد لله الذي أنعم على العالمين بإنزال القرآن. وجعله هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان. فسبحانه من إله عَظُم حِلمه على عباده فأمهلهم، وأنزل عليهم القرآن هدى وعبرة لهم؛ فذكّرهم فيه ووعظهم، وعلّمهم ما ينفعهم، وحذّرهم مما يضرّهم. ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِالله الغَرُورُ)). وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهّار، العزيز الغفّار، مكوِّر الليل على النهار، تذكرةً لأُولى القلوب والأبصار، وتبصرةً لذوي الألباب والإعتبار، الذي أيقظ مِن خَلقه مَن اصطفاه فزهّدهم في هذه الدار، وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار، وملازمةِ الإتّعاظ والإدّكار، وأشهد أنّ سيّدَنا محمداً عبدُه ورسولُه، وصفيُّه مِن خَلقه وخليلُه، كان أعلم الناس بحقيقة الدنيا وزوالها، فزهّد فيها، وتقلّل منها، ولم يغترّ بها، وقال صلى الله عليه وسلم فيها كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وابن حبّان والطبرني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:((ما لي وللدُّنيا. ما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا إلَّا كراكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ فاستظلَّ تحتَ شجرةٍ ساعةً من نهارٍ. ثمَّ راحَ وتَرَكها)).

يا أمّة المصطفى يا سادةَ الأُمَمِ * هذا محمّدُنا طريقُهُ واضِحُ
وبهديه مهما اهتديتمْ تُفلِحوا * وإذا أردتم في الأمور تَنجحُوا
صلّوا عليه في كل حين تربحُوا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. أُسوة الفقراء في القناعة بالقوت المحدود، وقُدوة الأغنياء في السّخاء والجُود، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدَوْا بهدي سيّد الوُجود. وجاهَدوا بأموالهم وأنفسهم إبتغاء رضوان الواحد المعبود، صلاة تبلّغنا بها غاية المنى والمقصود. وننال ببركتها شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم الموعود. ونُسقى بها من حوضه المورود. شربة لا نظمأ بعدها أبدا. بفضلك وكرمك يا برّ يا ودود.

أمّا بعد: فيا أيّها المسلمون. القرآن العظيم كلام الله جل جلاله. تلقّاه سيّدنا جبريل عليه السلام من رب العزة. ووعاه قلب سيّدنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم من جبريل. وحمله الصحابة من المبعوث رحمة للعالمين. قال تبارك وتعالى في سورة الشعراء:((وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)). القرآن العظيم كتاب هداية وبشارة. قال تعالى في سورة الإسراء:((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)). القرآن العظيم موعظة وشفاء. وهدى ورحمة. قال تعالى في سورة يونس:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)). هذا القرآن مَن استنار بنوره قاده إلى الجنّة. ومَن جعله خلْف ظهره ساقه الضياع إلى النار. مَنِ اِلْتمس الهداية فيه هداه الله. ومَنِ اِلتمس الهداية في غيره أضلّه الله. فما أسعد هذه الأمّة بكتاب رب العالمين. هذا الكتاب المحفوظ بحِفظ الله. قال تعالى في سورة الحجر:((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)). بلغنا كما أنزله الله. هو بين أيدينا. وفي صدور أهل الحظ منّا. ونحن المأمورون بالعمل بما فيه. قال تعالى في سورة ص:((كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)). والقرآن العظيم فيه علاج أمراض الأفراد والأُمم، وحلّ مشكلاتهم، وصلاح قلوبهم، وزكاء نفوسهم، وما شقيت البشرية إلا لمّا حُكمت بغيره، وما ضعُف المسلمون ولا هانوا إلا لمّا استبدلوا به غيره. قال تعالى في سورة المائدة:((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)). أيّها المسلمون. أَوَدُّ أن أقفَ بحضراتكم هذه اللحظاتِ المباركات، مع آيات كريمات من كتاب الله تعالى. في جوٍّ تتنزّل علينا فيه الرحمات، ويذكرنا الله فيمن عنده. لقوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)). أَوَدُّ أن نقفَ جميعاً مع سورة مكية من ثمان آياتٍ. من قرأها فكأنّما قرأ ألفَ آية كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج الحاكم في

المستدرك. والبيهقي في شُعب الإيمان. عن ابن عمر رضي الله عنهما. أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:((ألا يستطيع أحدُكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومَن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: أَمَا يستطيع أحدُكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر)). إنها سورة التكاثر. وهي قوله تعالى:((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)). أيّها المسلمون. وسورة التكاثر من السور العظيمة التي تعالج ما في النفس البشرية من حبِّ التملك والأنانية والإستئثار على الغير. والتكاثر يقع فيما يزيد على حاجة الإنسان في المال والمتاع وكل شيء، وهذا التكاثر صار من سمات هذا العصر الذي تربّى فيه البشر على القسوة والوحشية والأثرة والأنانية، ولسوف يقودهم ذلك نحو الهلاك والبوار في الدنيا والآخرة، ونُذُر ذلك في الدنيا ماثلة للعيان في المشكلات الإقتصادية، والقلاقل والفتن التي تنتج عنها. فتعالوا معشر المؤمنين والمؤمنات نفتح كتاب الله. لنتناول هذه السورة. نتدبّر آياتها. ونعيش مع حِكمة ربنا. وموعظة خالقنا. يقول جل جلاله:((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)). لنتساءل: ما هو اللهو؟ اللهو أن ينشغل الإنسان بأمر تافه. ويترك الأمر المهمّ. أن يحرص الإنسان على الأمور الفانية. ويُعرض عن الأمور الباقية الدائمة. اللهو أن تترك أيّها الإنسان ما خُلقتَ من أجله. وتعيش لاهثا وراء ما خُلِق من أجلك. قال تعالى في سورة المنافقون:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)). فيا ربنا ويا خالقنا. إذا ألهتنا أموالنا وأولادنا عن ذكرك. فماذا لنا؟ قال تعالى:((وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)). ويا ربنا ويا خالقنا. مَن هم الخاسرون؟ قال تعالى في سورة الزمر:((قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ)). فاحذر أيها المؤمن أن تغفل عن ذِكر الله. إحذر أن تنساب مع المعصية فتبتعد عن الطاعة. إحذر أن تشغلك الدنيا. فلا تجد وقتا للآخرة. قال تعالى في سورة الكهف:((الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)). نعم يا مبدعنا ويا خالقنا. فهل لنا من خيار؟ قال تعالى:((وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا)). فلا تلهك الدنيا عن الصلاة. لا تلهك الدنيا عن الإحسان. لا تلهك

الدنيا عن فعل الخير. أيّها المسلمون. قال تعالى:((أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ)). التكاثر تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وهذا هو واقع جمهور الناس. يكاثر بعضهم بعضا في أمور الدنيا، ويغفلون عن الآخرة. وأعظم شيء يَسْتَرِقُّ العبدَ ويسلبُه عقلَه شُغلُ قلبِه فيما لا نفع فيه، أو فيما نفعه زائل، وأكثر ما يشغل القلوب في هذا الزمن لهوها بالدنيا، وكثرة التفكير فيها، وكيفية الحصول عليها، والتزوّد منها، والإستمتاع بها، على نحوٍ قبيحٍ مخيف. والملاحَظ أنّ الآية لم تذكر نوع المتكاثَر به؛ ليكون عامًّا مطلقًا، وأنَّ كلَ ما يكاثر به العبدُ غيرَه سوى طاعةِ الله ورسوله. وما يعود عليه بنفعٍ معادِه. فهو داخل في هذا التكاثر، فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة. أو نسوة أو حديث أو علم. ولا سيما إذا لم يحتج إليه، والتكاثر في الكتب والتصانيف. وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها، والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره. وهذا مذموم. إلا فيما يقرّب إلى الله تعالى. فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات. ومسابقة إليها. أيّها المسلمون. إنّ من التكاثر المذموم التكاثرَ بعلم لا ينفع صاحبه. كتشقيق المسائل، والبحث عن شواذّها وغريبها، وما لا يتعلّق به عمل؛ للمفاخرة على الأقران، ولفت الأنظار، أو لتفصيل الشريعة على أهواء الناس، كما يقع من بعض المفتونين بالجاه والإعلام في هذا الزمان، ويُخشى على من كان كذلك أن يقال له يوم القيامة: (تعلّمتَ ليقال عالم. وقد قيل. فيؤمر به فيسحب على وجهه إلى نار جهنّم). والتكاثر بالمال إن لم ينفع صاحبَه ضرَّه؛ كأن يجمعه من أيّ كسبٍ. لا يراعي حلالا ولا حراما، وينفقه في الحرام، فإنه مسئول عن اكتسابه وإنفاقه، ولن ينتفع إلا بالقليل من ماله، ثم هو لوارثه؛ فغُرمه عليه وغُنمه لغيره. وقد جاء في الحديث الشريف:((نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ)). ويُفهم منه ذمّ المال غير الصالح عند الرجل غير الصالح؛ لأنه يعود عليه بالضرر. أيّها المسلمون. ومن التكاثر بالمال التكاثر بالدور والمزارع والضيعات. والسيارات والهواتف النقالة. والكماليات التي أصبحت من سمات هذا العصر، وأضحت المفاخرة بها ظاهرة للعيان، وتعدّت الضرورة والحاجة إلى الكماليات وإلى السرف المذموم، ويُخشى أن يدخل ذلك في الأشر والبطر. والظلم والكِبر، ويُخشى على الناس أن يُسلبوا ما أُنعم عليهم بسبب سوء استخدام هذه النعم. وكذلك

التكاثر بالولد. إن لم يراع فيه الوالد ما أوجب الله تعالى عليه فيهم من صلاح النية، وحُسن التربية والتأديب، وأن لا يكون مقصده بتكثيرهم: التكاثر بهم على سائر الأُسر والقبائل، أو الفخر بهم أمام قرابته وبني عمومته، ولا حسبة له في نفع الإسلام بهم، وتكثير أمّة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ورجاء دعوتهم له، ثم يهملهم في أمور دينهم، ويعتني بأمور دنياهم، ويغذّي أبدانهم، ويهمل قلوبهم، فهذا يُخشى أن يكون تكاثره بولده وبالاً عليه، والوليد بن المغيرة لم ينفعه كثرة ولده. وحضورهم عنده. فقال الله تعالى فيه كما في سورة المدّثّر:((ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا)). أيّها المسلمون. وهذا التكاثر يلازم أكثر الناس حياتهم كلها، فتطول أعمارهم، وتنسج أكفانهم وهم معرضون عن الآخرة، متنافسون في الدنيا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد:((الشَّيْخُ يَكْبَرُ وَيَضْعُفُ جِسْمُهُ وَقَلْبُهُ شَابٌّ على حُبِّ اثنتين: طُولِ الْحَيَاةِ. وَحُبِّ الْمَالِ)). أيّها المسلمون. في نهاية خطبتي هذه أُذكِّر نفسي وإيّاكم بخطبةٍ جامعةٍ من خطب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. حيث يقول فيها:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَانْتَهُوا إِلَى عِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي كَيْفَ اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، فَلْيَتَزَوَّدِ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَمَنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنَ الشَّبَابِ قَبْلَ الْهِرَمِ، وَمِنَ الصِّحَّةِ قَبْلَ السَّقَمِ .فَإِنَّكُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ، وَالدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ. إِلَّا الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِي وَلَكُمْ)). نفعني الله وإيّاكم بالقرآن العظيم، وبسنّة نبيّه الكريم. صلى الله عليه وسلم. اللهم أيقظ قلوبنا من الغفلات، وطهِّر جوارحنا من المعاصي والسيّئات، ونقِّ سرائرنا من الشرور والبليّات، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخِرتنا التي إليها معادنا. اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ عِلمنا. ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، اللهم اجعل الحياة زيادةً لنا من كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر، وأصلح أئمّتنا وولاّة أمورنا، وهيّء لهم البطانة الصالحة. التي تدلّهم على الخير

وتعينهم عليه. وآمنّا في أوطاننا ودورنا. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين.اهـ